



ما تتركه Gillette وراءها

(كما يراه الذين يستأنفون الطريق)

«العيادة تعالج المرضى. مجتمع الرعاية يسند الناس.»

أولاً. ما يبقى

كنتُ في قاعة الاستراحة، تلك المفتوحة للمرضى من أجل راحة بعد الظهر والسيجارة والحديث — ولنا نحن المرافقين، في انتظار أن نعود بمرضانا إلى البيت.

لم أكن قلقاً، لكنني كنت متيقظاً: أرقب كيف يصير الإنسان هشاً داخل المرض، مرضٍ يقعد صاحبه في الغالب ولا مهرب منه، مرضٍ لا ينظر إلى عمر أحد.

كانوا خمسة رجال وامرأة واحدة، جميعهم على كراسٍ متحركة. التفتوا إليّ وراحوا يسألونني كم عمري، وما عملي، وبم أشغل، وما رسالتي في الحياة؛ ثم أرادوا في النهاية أن يعرفوا رأيي في بعض مسائل السياسة والدين، وفي بضع شخصيات عامة.

كانت عيونهم مطفأة، عيون من لا ينتظر إلا أن يرى الضوء ينطفئ. أما أنا فقد أشعلته من جديد، ذلك الضوء.

تلك طريقي في أن أكون مع الناس: أن أجعلهم يتسمون. لست ممثلاً، ولا مهرج العيادة — مجرد رجل كغيره من الرجال، لكنه ليس مبذولاً كالخبز.

ثم طلبوا مني حكاية. وهنا عليّ أن أكون صادقاً مع القارئ: الحكاية التي رويتها لم تكن نكتة مهذبة، وما كنتُ لأرويها في أي مكان آخر. لكن هناك، في تلك القاعة، كان الإذن بالضحك مما سلبته الحياة منهم إذناً يملكونه هم، ويمنحونه لأنفسهم. وقد طلبوه مني. لذلك أنقلها كما كانت، لأن تنظيفها تماماً خيانة لهم.

دعوني أحدثكم — قلت — عن رجل على كرسي متحرك، بلا ذراعين وبلا ساقين، ردّ ذات يوم على إعلان في موقع للتعارف.

وإن لم يتسم أحدكم، أضفتُ، فالذنب ليس ذنبي: معناه فقط أن اليوم ليس يومه.

امرأة واسعة الثراء، طاعنة في السن — في نحو الثمانين — كانت تبحث عن زوج، تعينها في ذلك ابنة أخيها ذات الخمسة والأربعين عاماً. لكنها، بعد كل ما علمتها إياه الحياة، كانت تعرف تماماً أي رجل تريد: رجلاً لا يرفع يده عليها أبداً، رجلاً يلزم البيت، ثم — لنقل — رجلاً سخيّ المقاييس.

طُرق الباب. فوجدت أمامها هذا الرجل على كرسيه المتحرك، بلا ذراعين وبلا ساقين، لكنه شاب وسيم، جاء يتقدم رداً على الإعلان.

أجرت معه المقابلة.

كانت تريد رجلاً لا يرفع يده أبداً: وهو بلا ذراعين. النقطة الأولى لصالحه.

وكانت تريده بيتوتياً، هادئاً: وهو بلا ساقين، على كرسيه. النقطة الثانية لصالحه.

وأخيراً قالت له إنها تريده وافر العدة. فأجابها، بكل جدية: «سيدتي... وبماذا تظنين أنني طرقتُ الباب؟»

عندها انفجر الرجال الخمسة ضاحكين، ولم يستطيعوا أن يتوقفوا. أما المرأة فبقيت جادة، لا يتحرك في وجهها شيء. فانصرف انتباهي كله إليها.

لم تكن عندي لها رواية ثانية، لم أكن قد أعددت شيئاً. لكن خاطراً لمع في ذهني: قلت لها إنني، إن شاءت، سأعطيها رقم هاتف ذلك المتقدم. فأضأت عيناها، وابتسمت، وقالت: نعم، نعم.

انترعتُ منها ابتسامة. بلغتُ غايتي. كان ذلك كل ما بقي من تلك اللحظة — وكان كافياً.

حين غادرتُ المنشأة، سألتني الجميع متى أعود، وهل عندي حكايات أخرى.

ثانياً. خاتمة

يظن الناس أن ما يبقى هو ملف طبي، أو صورة أشعة، أو علاج يُستكمل في البيت، أو رقم هاتف خُطّ على عجل فوق قصاصة ورق.

إنهم مخطئون.

حين يغادر الإنسان منشأة علاجية، لا يكاد يحمل معه شيئاً مما استعمل في علاجه.

يحمل معه الناس.

يحمل معه الأصوات.

العادات.

الممرات.

المواعيد.

الوجوه التي ضبطت، أسابيع أو شهوراً، إيقاع حياته.

الطب يبقى في الأرشيف.

والذاكرة تسلك طريقاً آخر.

وعن تلك الذاكرة أريد أن أتكلم.

ثالثاً. صفحة المؤلف

لم يكتب هذا العمل بتكليف من أحد.

لم يُبع.

لم يُنجز لغرض تجاري.

كُتب ليشهد لقيمة إعادة التأهيل، وللكرامة الإنسانية، وللعلاقة بين الناس.

الأجر الوحيد المطلوب دولار رمزي — لا ثمناً للعمل، بل شهادة على التزام مشترك بثقافة الرعاية والأمل والمسؤولية.

فرديناندو

Gillette ← PDF، ملحة المريض

استكشف الملاحم الأخرى

· Vatican · One Door · Genesis · Opera · Wood · المكتبة · الخرائط · The Corpus

اتصل بنا